دموع في ليلة حمراء

كانت بداية ليلة حمراء .. وكل شيء بدا معدا بمهارة وذوق واتقان ، وقد تعاونت مركبات الحجرة من عطر نفاذ ، وموسيقى ناعمة ، ولهب حار يتراقص فى جوف المدفأة ، وضوء خافت ينبعث من مصباح أحمر أنيق .. تعاونت كل هذه المركبات .. بالإضافة الى الأنثى الساخنة المتعطشة المتأهبة .. على خلق جو أحمر حار يرهف الحس ويؤجج المشاعر ، ويدفع الدماء حارة في العروق .. ويهمس أو يصرخ .. في غير تحفظ ولاحذر بأن فعلا ما – مما يسمونه منكرا – على وشك أن يحدث .

وكانت تجلس متربعة على أريكة منخفضة فى ركن الحجرة وقد شمرت كمى وساقى بيجامتها الصوفية الفضفاضة المخططة .. التى تعوّدت أن تسرع بارتدائها بمجرد أن تعبر قدماها بابه .. وبعد أن تنزع عنها جميع ملابسها .

وكان يجلس متكئا برأسه على كتفها ممددا ساقيه على الأريكة .. وأحس بأصابعها تعبث فى شعره وبأنفها يمس رأسه وبشفتيها تهمسان :

– أحب رائحة شعرك .

ولم يجب ، ورفع شفتيه فألصقهما بشفتيها فى قبلة قصيرة ثم عاد يحملق فى اللهب المتراقص .

ومرة أخرى عادت تهمس فى حرارة :

– انى أحبك .. حبا كامنا فى أعماقى .. أكتشفه كلما خلوت الى نفسى وحاولت سبر أغوارها .

ومرة أخرى لم يحرك شفتيه .. بالكلام ولا بالقبل .. وطال الصمت فعادت تهمس متسائلة :

– وأنت ؟

– انى أعزك ..

– ومن تحب اذن ؟

– لا أحب أحدا .. أو أحب التى معى ساعة أن تكون معى .

– هذا ليس حبا .

– هذا خير لى من الحب . عندما يحب الرجل عشر نساء .. يمتلك العشر .. وعندما يحب واحدة تمتلكه الواحدة .

– اذن فليس هناك من تمتلكك ؟

– أجل .

– ان فى هذا لى بعض العزاء .. وبعض الأمل فى أن أمتلكك يوما .

وساد الصمت مرة أخرى ومدت يدها فتناولت كأسا من فوق المنضدة ، ورشفت منه رشفة .. ثم أعادته .. وتساءلت فجأة :

– ألم تحب يوما ؟ ألم يمتلكك أحد ؟ آأمضيت حياتك هكذا .. لاتحس بنعمة الامتلاك ؟ أتجلس على قارعة الحياة .. لاتعرف سوى الإيجار .. ايجار نفسك وايجار الغير ؟

وضحك وقال وهو يرفع اليها عينيه :

– الإيجار يمنحنا نعمة الحرية .. ومتعة التغيير والتبديل والانطلاق ، وقتما نشاء وحيثما نشاء .

– ومتعة الاستقرار والسكينة والطمأنينة .. والحب ؟ ما رأيك فيها ؟ .. لقد كنت أظنك من قراءتى لك .. لاتفعل شيئا سوى الحب .. عجيب هذا التناقض بين ما نتوهمه فى الكتاب ومانجدهم عليه .. أمعقول أنك – مع كل ما كتبت – لم تحب أبدا ؟ لابد أن تكون اذن مخادعا كبيرا !

ولم يجب ، وبدا فى صمته كأن الحديث لايعنيه فهمست به عاتبة :

– لماذا لاتجيب ؟ حدثنى عن الحب ؟

وحوّل اليها بصره ناظرا اليها فى شىء من الدهشة وقال متسائلا :

– ماذا بك الليلة ؟

– اني أحبك ، واذا كنت لاتريد أن تبادلني الحب .. فبادلني أحاديث الحب .. ألم تحب ؟

وعاد يحملق في اللهب المتراقص وبدا عليه شرود حزين وأجاب في لهجة مقتضبة وصوت خافت :

– أحببت مرة .

– حدثني عنها .. متى ؟ وكيف ؟

وبدأ كأنما ينفض عن نفسه شبحا جثم عليه وقال وهو يمد يده ليتناول كأسه ويهم بالنهوض :

– دعيني من هذا .. سأروى لك آخر نكتة .

وأحاطته بذراعيها وأبقته حيث كان وقالت في اصرار :

– لا أريد أن أسمع نكتا .. أجلس وحدثني عن الحب ..

وأحس بأصابعها تعاود العبث في شعره وبأنفها يتشممه وبشفتيها تتسللان الى جبينه وعينيه ، وغمرته بموجة حنين جارفة أثارت في نفسه شجنا كامنا وذكرى هاجعة ، ووضع الكأس جانبا وأخذت الألفاظ تنساب من شفتيه بطيئة هامسة كأنما يحدث نفسه .

– بدأت الصلة بيننا بالكتابة .. وكانت تقطن احدى بلدان الساحل ، وقرأت رسالتها أول مرة ضمن عشرات الرسائل التي يحملها البريد اليّ طالبة صورة أو امضاء أو كتابا أو اجابة لبضعة أسئلة أو حلا لمشكلة .. ورددت عليها في بضع كلمات مهذبة مهديا اياها الصورة أو الكتاب – لست أذكر – الذى طلبته ، وردت عليّ – كما ترد عليّ سواها – شاكرة في رقه .. واسترسلت تعبر في بضعة سطور عن

اعجابها بى وتقديرها لى .. ولم تكن فى هذا أيضا تفترق كثيرا عن العشرات غيرها .

وتبادلنا بضعة رسائل تقدير من جانبها وشكر من جانبى ، وبدأ التقدير يتطور الى أكثر من تقدير ، وبدأت الرسائل تطوى فى خلال سطورها كلمات الصداقة والأخوة .. والصلات الروحية وغيرها من التغييرات التى لايفصلها عن الحب سوى خيط دقيق .. أو التى يستغلها الحياء للتعبير عن الحب .

وحتى هذه التعبيرات لم تميز صاحبة الرسالة عن العشرات غيرها فقد كانت كلها تحمل مثل هذا التطور ، وكان علىّ أن أجيبهن جميعا كصديقات صغيرات عزيزات .. ولقد كنت أحس لهن كذلك فعلا ، فكنت حريصا فى ردّى على ألا أفرط فى الرقة .. فأمنحهن أملا أحمق أو أفرط فى الجفوة فأصدهن صدا موجعا .

وحملت الىّ احدى رسائلها أمنيتها فى أن ترانى قائلة : ان تلك قد باتت أقصى أمانيها وأنها لابد مع الزمن أن تنالها . وحتى هذه الأمنية لم تستطع أن تميز صاحبة الرسالة فقد حملتها الىّ غيرها من الرسائل .

وأنا أعرف نفسى جيدا .. أعرف أنى لاأستحق شيئا من هذا كله ، ولم أملك الا أن أضحك من نفسى ساخرا أن تكون رؤياى قد أضحت أمنية .. لكائن من كان .. فما بالك بهؤلاء الصغيرات العزيزات اللاتى أحب أنا نفسى رؤيتهن !

وهيأت لى الظروف فرصة السفر الى بلدتها .. ووجدتها فرصة سانحة لأن أراها هى وغيرها من أصحاب الرسائل المعجبة اللاتى يقطن نفس البلد ويتمنين رؤيتى . فأرسلت اليهم أنبئهن بقرب قدومى اليهن .

وكان عليّ اما أن ألقاهن جملة فى موعد أحدده لهن فى الفندق الذى أنوى النزول فيه .. أو ألقاهن فرادى ، كل فى موعد مختلف ، وكان لكل طريقة عيوبها ومزاياها . فالأولى تفضل الثانية فى أنها توفر عليّ الوقت والجهد فى الحديث ، والثانية توفر عليّ الحرج فى جمعهن سويا وفى خذلانهن عندما ترى كل منهم أنها ليست الوحيدة التى أخصها بالكتابة واللقاء .. وأنها لاتعدو واحدة مجهولة ضمن بقية المعجبات .

وفضلت الطريقة الثانية ، فقد خجلت أن أحيط نفسى فى الفندق بمظاهرة فتيات .. ووجدت أنى أول من سيحس بالحياة والحرج أمامهن .

واخترت منهن خمسا .. كنت أحس من كتابتهن شيئا – حرارة أو لطفا أو رقة – يميزهن عن غيرهن ويجعلهن أقرب الى نفسى .

وكانت هى .. ضمن هؤلاء الخمس .. اللاتى كتبت اليهن أنبئهن بقدومى وأحدد موعد اللقاء .

ولم يكن لدىّ من الفراغ سوى أمسية واحدة كان عليّ أن أقسمها بينهن ، فحددت المواعيد الخمسة بفاصل ساعة تبدأ من الرابعة بعد الظهر وتنتهى فى التاسعة .. وقدرت ألا يزيد لقائي مع أية واحدة عن نصف ساعة تاركا ربع ساعة بين رحيلها ووصول الأخرى حتى لايحدث ارتطام بينهن .

وذهبت الى البلدة وأتممت أعمالى بها ، وقبيل الرابعة فى الأمسية الموعودة اتخذت مجلسى أمام منضدة فى ركن التراس المطل على

الشاطىء وكنت قد كتبت ورقة بأسمائهن وأمامها موعد لقاء كل منهن حتى لا أخلط بينهن .

وكنت أعرف سلفا أى نوع من الفتيات أوشك أن ألقى ، ولم أحاول أن أخدع نفسى فأمنيها بمتعة منتظرة .. بل أقنعتها بأنها تؤدى واجبا لابد من تأديته .. ولم أكن أتوقع قط أن أبصر بهن أى نوع من أنواع الجمال والإغراء .. وأكثر من هذا كنت أعرف من خلال رسائلهن ، سيذهب بها الحياء والارتباك الذى سيصيبهن عند أول لقاء لى .. وأن علىّ أن أمضى نصف الساعة التى سأجلس خلالها مع كل منهن فى دفعهن الى الحديث وفى خلق موضوع له .

وحلت الرابعة – موعد قدوم الأولى – وأنا أرقب مدخل التراس ، محملقا فى كل قبيحة صغيرة مرتبكة ، معتمدا على أن تعرفنى هى فتتجه الىّ .

ومضى ربع ساعة ولم يحضر أحد .. ونصف ساعة ولمَ يحضر أحد .. وبدأت أسترخى فى مقعدى مخرجا الأولى من حسابى ، تاركا لنفسى فرصة ربع ساعة راحة قبل أن أبدا فى انتظار الثانية .

ولكن .. لم يكد يتجاوز العقرب النصف ببضع دقائق .. حتى لمحت فتاة تجتاز المدخل ووجدت أعصابى المسترخاة تتوتر ، واحساسى يرهف .. وأخذت أرقبها جيدا .

ولم أتوقع قط أن تكون احدى المقيدات فى جدول مواعيدى .. اذ لم يكن ينطبق عليها الكثير من المقاييس التى فرضتها عليهن والصور التى تخيلتها لهن .. حقيقة كانت الى حد ما صغيرة .. والى حد ما .. مرتبكة مترددة ، كمن تبحث عن شىء .. ولكنها لم تكن قبيحة أبدا ..

بل كانت جميلة .. الجمال الأمثل الرقيق الذى يمس شيئا فى أعماقى .. والذى أشعر أن كل حواسى قد شدّت اليه .

وأخذت أرقبها .. ليست مراقبة منتظر موعدا .. أو متوقع لقاء .. بل مراقبة ملهوف مأخوذ .. متناسيا كل شيء عن معجباتى وعن جدول مواعيدى .. وتطايرت منى كل مظاهر الكبرياء والغرور الذى كان يفرضه علىّ الموقف فرضا .

ورأيت خطواتها تتباطأ وعيناها تبحثان فى حيرة بين المناضد ووجدت الحمق البيانى الذى لا أستطيع التخلص منه يدفعنى الى أن أتمنى أن تكون احداهن .. وأن أذهب اليها لأقول لها أنى أنا هو أنا .. وقبل أن أراجع حماقتى الصبيانية كانت عيناها – فى جولتها الباحثة – قد وصلتا الى الركن الذى أجلس فيه .. والتقتا بعينى .. وفى ثوان معدودات تصاعد الدم الى وجهها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة جميلة وتلألأت عيناها بفرحة ممزوجة بدهشة .. ثم وجدتها تتجه الىّ فى خطوات سريعة وجلة .

ونهضت أتلقاها فى لهفة أطاحت بكل ما رسمته فى ذهنى من سمات التؤدة والهيبة التى كان يجب علىّ أن ألقى بها معجبى . وشدّت على يدى ، ومازالت تعلو ثغرها الابتسامة الحلوة الخجلة ..وقالت لى :

– لم أكن أتوقع أن أميزك بهذه السهولة .. انى أشعر أنها ليست المرة الأولى التي أراك فيها .. لقد عرفتك بمجرد أن التقت عيناى بعينيك .. وأنت .. أعرفتنى ؟

وقلت وأنا أقدم لها مقعدا وأجلس قبالتها .. محدقا فى وجهها :

– طبعا عرفتك .

ولم أكن مدعيا فى قولى .. فقد أحسست أنى عرفتها من الصورة المرسومة فى باطنى منذ عشرات السنين .

.. ورمقتنى بعينيها الحلوتين الباسمتين وقالت مازحة :

– من أكون ؟

ولمحت الساعة فى معصمى .. كانت الخامسة الا ربعا .. وأحسست أنى قد أسقط فى يدى .. من تكون ؟ الأولى .. أم الثانية ؟ .. كوثر .. أم بثينة .. الاحتمالان جائزان ، فقد تكون كوثر متأخرة فى موعدها .. أو بثينة مبكرة فيه .

ولو قلت لها هذه وكانت تلك .. أو تلك وكانت هذه .. لجرحت مشاعرها .. وأظهرت أنى لا أتوقع مجيئها هى .. بل كنت أنتظر أخرى .. وأنى أخطأت فيها .. وتحتم عليها الرحيل لتترك مجالا للأخرى التى قلت اسمها .

وكرهت أن أفقدها بعد أن أقبلت علىّ بمثل هذه اللهفة ، وبعد أن أقبلت أنا عليها بلهفة أشد وكأنى لا أنتظر سواها .

وكانت لم تزل تنظر الىّ فى ابتسامتها الرقيقة ، وقد بدت عليها أقصى مظاهر الرضاء والسعادة .. وعادت تتساءل :

– لم تقل من أكون ؟

– وكان علىّ أن أقول شيئا لايفضح أمرى ، وأن أستدرجها فى الحديث ، علها تفصح فى أقوالها عمن تكون .

وقلت محاولا اكتساب وقت يمنحنى فرصة التفكير :

– أتعتقدين حقا أنى لا أعرف من تكونين ؟

ومرّ بذهنى أن خير طريقة أعرفها بها هو أن أعرف منها حقيقة موعدها ، فاذا كان الرابعة فهى كوثر ، واذا كان الخامسة فهى بثينة .

وقبل أن تجيبنى أردفت قائلا :

– كيف لا أعرفك .. أليس بيننا موعدك ؟

– أجل .. لقد تأخرت عليك .. وكنت أخشى ألاّ أجدك .

– أتتأخرين دائما فى مواعيدك ياكوثر ؟

وأحسست بموجة من السعادة تغمر وجهها وأنا أنطق باسمها .. ولم يكن من العسير علىّ أن أعرفه وأغامر بنطقه بعد أن اعتذرت عن التأخير ، فأيقنت أنها لابد أن تكون فتاة الرابعة كوثر .. ولكنى أحسست بمشكلة جديدة تطل برأسها بيننا .

كانت الساعة قد بلغت الخامسة الا الربع ، ولم يبق سوى ربع ساعة على الموعد الثانى ، واذا كانت فتاة الرابعة قد تأخرت نصف ساعة فليس هناك من يضمن لى أن فتاة الخامسة لن تأتى مبكرة عن موعدها .. ولاسيما بعد أن بت أتمنى تأخيرها ، والأقدار تأبى دائما أن تنيلنا مانتمنى .

وتملكنى قلق وحيرة ، فقد كرهت أن يحرمنى مخلوق – أيا كان – من هذه الأمنية العذبة الجالسة أمامى .. وأحسست أنه لاتوجد على ظهر الأرض قوة تستطيع أن تنزعها منى بعد بضع دقائق .

ووجدت هذا الشىء الذى أثارته فى أعماقى .. يملؤنى رغبة فى أن أفر بها بعيدا .. وتلفت حولى وأشرت الى الجرسون ، وبدل أن

أطلب لها شيئا نقدته حسابه عما طلبت وبمنتهى البساطة ، وبمنتهى الحمق وقلة الذوق نهضت قائلا :

– المكان مزدحم .. (ولم يكن مزدحما) .. ألديك مانع من أن نتمشى على الشاطىء .. أو نذهب الى أى مكان آخر ؟

ويبدو أن فرحتها بلقائي كانت على استعداد لتغطية كل مساوئى وتصرفاتى غير الطبيعية ، فقد رأيتها تتبعنى فى استسلام ومازالت يكسو وجهها الإشراق والسعادة والابتسامة المتلالئة .. وأحسست بالراحة تملأ نفسى وأنا أسير واياها متلاصقين على رمال الشاطىء .. ووجدتنى أستعيد رسائلها فى ذهنى .

كانت أرقهن قولا ، وأحرهن مشاعرا وأجملهن روحا ، وأشدهن صلة بى واجتراء فى الحقوق علىّ ، ولم أكن أشك – من سابق تجاربى – فى أنها لابد أن تكون أقبحهن شكلا .. فقد علمتنى التجارب أن جمال البعد غالبا ما يتناسب تناسبا عكسيا مع جمال القرب ، وأن الله يوزع المزايا على الناس بقدر .. اللهم الا قلة شاذة يتجمع فيها الفضل كله أو السوء كله .

وتحدثنا كثيرا ، ولم يصعب علىّ أن أزيل عنها الرهبة الأولى . وأن أجعلها تؤمن بسهولة .. بعد أن كانت – على حد قولها – لاتصدق أنها معى وأنها تسير بجوارى جنبا الى جنب .. بأنها أصبحت أقرب الأصدقاء الىّ .

فعلت هذا بلا جهد ولا كلفة .. لم أتكلف سوى أن تركت نفسى على سجيتها . وليس أسهل على نفسى من الانطلاق على سجيتها

عندما أكون بجوار شخص أحبه ، ولقد أحسست من اللحظة الأولى التى رأيت فيها هذه المخلوقة .. أنى أحبها .

وأنا على مرّ السنين .. وعلى ما يفرضه علىّ السن من تؤدة واحتشام .. لا أستطيع أن أنتزع نفسى من طفولتى وصباى فى لحظة انسجامى مع من أحب ، فانطلقت مع الحلوة الرقيقة المرهفة السائرة بجوارى أمرح وأضحك خارجا عن كل قيود الكلفة والتزمت داخلا فى نفسى الشاعرة الذائبة .

وقلت لها الكثير ، وقالت لى الكثير .. حدثتنى عن أمها وأبيها وأخواتها ومدرستها وزميلاتها ، ثم عند بدء قراءتها لى وكتابتها الىّ وأحاسيسها نحوى .

وكان البحر قد اقتضم الشمس وأخذ فى ابتلاعها على حافة الأفق . وامتدت يد الظلمة لتمسح بقايا الدماء المنتشرة فى الشفق . ودون أن نشعر وجدنا الظلام يحوطنا فيما أحاط .. واستقر بنا المقام على حافة صخرة يتطاير من حولها الرذاذ ويتلاطم الموج .. ورأيتها ترفع الىّ وجهها وعلى شفتيها ابتسامتها المشرفة وهى تتساءل فى استحياء :

– لم تقل لى حتى الآن .. كيف وجدتنى ؟

– لم أقل لك حتى الآن ؟ . أحقا تعنين سؤالك هذا ؟

– أقلت لى ؟

– لم أقل بلسانى .. ولكن ألم تحسى أنت كيف وجدتك ؟ وبعد أن نسيت نفسى .. ونسيت كل ما حولى وأخذت أسير معك كصبية العشاق تسائلينى كيف وجدتك ! لقد كان مفروضا ألا يزيد

لقائي لك عن نصف ساعة أعتذر لك بعدها بأنى على موعد ، ثم ألقى بعدك أربع معجبات أخريات ، ولكنى لم أكد أراك حتى اختطفتك وفررت بك الى هنا . أعرفت الآن كيف وجدتك ؟

وبدا على سيمائها التأثر وأطبقت شفتيها على ابتسامتها الدائمة .. وسمعتها تهمس فى سرور وقد أطرقت برأسها وحدقت أسفل الصخرة :

– عجيبة هذه الأحلام !

– كيف ؟

– لقد حلمت ليلة أمس أنى معك .. كان حلما لذيذا ما قضيت فى حياتى لحظات أمتع منه .

– قصّيه علىّ .. لعلّى احققه لك .

ورفعت رأسها وارتسمت على شفتيها ابتسامة مستحيية وقالت فى حياء لذيذ :

– لأستطيع .. انى أخجل أن أقصه .

– أين كنا ؟

– فى حديقة دارنا ، وقد أتيت تسأل عن عنوان مجهول .. فعرفتك ، وادعيت أن عنواننا هو ماتريد ، وتحايلت على ادخالك .. وجلست معى فى الأرجوحة الكائنة أسفل حجرتى والتى تعوّدت أن أقرأ فيها كتبك ، وعندما اعترفت لك بخدعتى قلت انك تعرفها وأنك تريدنى أنا ، وكان الليل مخيما ، والسكون سائدا ، والقمر مطلا ، وجلسنا نقرأ سويا .. ثم أدرت لك الموسيقى .. التى كنت أطلب منك فى رسائلى سماعها . وسألتك أن تنهض لترقص معى .

وصمتت مطرقة برأسها ، فعدت أتساءل :

– وبعد ؟ أكملي الحلم .. حتى أحققه لك .

– لا أستطيع .

– أنهضت معك ؟ ..

– وأشارت برأسها :

– أجل .

– وأمسكت بيدك ؟ ..

ومددت يمناى فأمسكت بها كفها ، ثم عدت أتساءل :

– وضممتك بيدي ..

وأحطتها بذراعي الآخر في رفق ووجدتها تغمض عينيها كالمستغرقة في حلم ، وهي تشير برأسها اشارة خفيفة (أجل) .

وفي صمت وضعت شفتي على شفتيها في مسة خفيفة وبدا لي وجهها في الظلام كأنه وجه قديسة . ومضت برهة قبل أن تفتح عينيها المغرورقتين وتهمس في لهجة ذائبة :

– لست أدري كيف أشكرك .. ما ظننت أن حلمي سيحققه الله بمثل هذه السرعة .

وافترقنا ليلتذاك ، وعدت وأنا محمل القلب بأجمل ما حمل قلب بشر من حب .

واستمر الحب بيننا يزداد على مرّ الأيام .. حب حقيقى كاعنف ما يكون الحب وأحرّ ما يكون الهيام ، وانكمشت رسائل المعجبين بعد أن تركز كل ردّى على رسالة واحدة .. حارة ملتهبة .

وقد يبدو الحب غير متكافىء الكفتين ، وقد يثير الدهشة والعجب ألا يسقط ماهرا محنكا خبيرا بالنساء مدرعا بتجاربه ضد فتنتهن سوى طفلة بريئة عاطلة من كل قدرة وخبرة .. ولكنى أعتقد أن هذا الشيء يجب ألا يبعث على الدهشة .. فلست أرى هناك مقاييس معينة يمكن أن نخضع لها الحب .. بل يبدو لى أن المسألة على النقيض ، وأن أخطر أنواع النساء ، وأشدهن تأثيرا على الكتاب والفنانين وأصحاب التجارب هن أشدهن سذاجة وبراءة وبساطة .

على أية حال .. لست أجد هناك ما يدعو للمناقشة ، أو التبرير أو الاعتذار .. فالأمر قد وقع .. ولم يكن هناك مفر من التسليم بالواقع . وبدأت أدبر أمرى وأنظم حياتى على أساس حالتى الجديدة .. حالة انسان محب جاد فى حبه مخلص لمن يحب .

وبدأت بعد عمر طويل من العبث واللهو .. تصيبنى حالة من الزهد والقناعة .. وتساقطت الرفيقات من حولى كما تتساقط أوراق الشجر .. واستطاعت الفتاة الصغيرة أن تدفع عنى من الخطايا ما عجزت عنه نذر السماوات وعظات الرسل .

وبلغت بى الجدية فى مشاعرى الى الحد الذى هانت على فيه حريتى .. ولم يعد الزواج فى نظرى مصابا يتحتم تجنبه وبلية يجب اتقاؤها ، بل وجدت نظرياتى فى الزواج تنقلب رأسا على عقب واذا بتفكيرى ينتهى الى أنه خير وسيلة للاستقرار والطمأنينة .

وكنت أذهب للقاء فى كل فرصة تسنح لى .. صيفا وشتاء . ولم يتعد اللقاء بيننا صخرة الشاطىء أو ركننا فى أحد مقاهيه .. ولاتعددت علاقتنا .. مسة الشفاه .. التى حققت لها بها أول حلم .

وبدأنا نطرق حديث الزواج طرقا خفيفا ، وحاولت هى تجنبه فى أول الأمر ليقينها مما تعرفه عن آرائى وطريقة حياتى أنى أكرهه .. ولقناعتها بما كان بيننا .. وعدم محاولتها التطلع الى تجاوزه أو الطمع فى أكثر منه .

وزاد حديثنا عن الزواج والعائلة ، وربة البيت والأولاد فى لقائنا ورسائلنا ، حتى انتهى الأمر بيننا الى قبوله كفكرة ، ثم تأكيده وتحديده كأمر واجب منته .

ولم يبد لنا اندفاعنا فى الحب .. اى نوع من انواع الموانع تقف امام رغبتنا فى الزواج .. لا ارادة اهل ، ولا فارق سن ، ولاشىء ابدا .. كل ذلك كان حصى صغيرا امام تيار حبنا .

وحملنى القطار اليها ذات ليلة .. بعد اتفاق على لقاء يتبعه تقدم لطلب يدها .. وجلست فى عربة القطار اضيع الوقت بمراجعة مقال وبضعة بروفات ثم اعدتها الى الحقيبة واخرجت بضعة الرسائل التى تسلمتها قبيل الرحيل ولم يسمح لى الوقت بفضها .

ولم اجد بالرسائل جديدا .. نفس الطلبات ونفس الأسئلة ونفس المشاكل .. حتى توقفت امام احداها ومررت بصرى بخفة على بضعة الأسطر الأولى .. ثم وجدتنى اتمهل وتمعنت فى القراءة وقد تملكتنى الدهشة .

انى أذكر الرسالة كلمة .. كلمة .. لقد كانت كما يلى :

(لا أريد أن أثقل عليك بكلام كثير لا أجد فى النفس الصبر عليه ولا الجهد له . كان يجب أن أكتب اليك من قبل لامنعك من الاستمرار فى الطريق الذى انتهى بك الى ما وصلت اليه ، ولكن لم يخطر لى ببال أن العلاقة مستمرة ، وأن طريقا واحدا مازال يضمكما سويا ليؤدى بكما الى هذه النهاية المذهلة . كل ما رأيته هو رساله منك اليها تبينت منها أنها رد على احدى رسائلها ، وأحسست برجفة عندما قرأت امضاءك .. ولم املك أن أزجرها عنك ،وآمرها بالكف عما سميته عبث اطفال) .

(ما أحمقنى .. كان يجب أن أقول لك أولا من أنا .. ولكنى افترضت أنك تعرفنى كما أعرفك ، أنا الآن – ام كوثر – وأظن هذا تعريفا كافيا بالنسبة لك .. لانك لاشك تعرف كوثر جيدا .. تشهد على ذلك كومة رسائلك الملتهبة اليها) .

(أظن كوثر قد حدثتك عنى .. وأظنك قد كوّنت فى ذهنك صورة معينة لى .. وان كنت أعتقد أنه لايمكن أن تنطبق بحال على الصورة الواقعة لى .. والتى يمكن لو قلبت اليوم ذهنك أن تجدها قابعة ضمن عشرات أو مئات القابعات فيه) .

(لست أدرى ما اذا كنت أستطيع تذكيرك بنفسى .. وان كنت سأحاول .. فاذا فشلت فيجب عليك أن تأخذ كلامى قضية مسلما بها ، فأنا أذكرك جيدا ، لأنك تمثل لى خطيئة واحدة فى حياتى .. بينما أمثل فى حياتك واحدة من آلاف الخطايا .

(لقيتك أول وآخر مرة وأنا حديثة عهد بالزواج فى زيارة لى بالقاهرة . وكنت شديدة التأثر بك وبكتابتك .. تأثرا قد يبلغ حد الوله . ودعوتنى الى زيارتك لتناول الشاى .. ولم أستطيع رفض الدعوة .. وأنا أجد فى لقائى بك شبه معجزة .. وكانت لم تزل أمامى بضع ساعات على القطار .. وذهبت معك بعد أن دعتنا واسطة التعارف .

(وضمنا واياك بيتك الساحر لبضع ساعات . لا أعتقد أنك تذكرها .. أو تذكرها كعينة لمئات الساعات المشابهة ، ومع ذلك فما زلت أذكرها أنا بعد كل السنين الطوال كأنها حدثت بالأمس ، أذكر أريكة الركن الخضراء المنخفضة واللهب المتراقص فى المدفأة والأشعة الهادئة المنبعثة من المصباح الأحمر والموسيقى الناعمة .. أذكر كل هذا جيدا ، وأذكر اللوحة فوق المدفأة وأذكرك ترنو الىّ فى لهفة وأذكر استسلامى بلا مقاومة .. وأذكر بعد هذا أمتع ساعات عمرى .

(وتركتك بغير ندم والى غير رجعة ، وأحسست أنى قد ذقت طعم شىء .. كان يتحتم علىّ أن أذوقه ، واعتبرت المسألة تجربة أولى وأخيرة فى سبيل ما يسمونه بالخطيئة .

(ونسيت كل ما كان من أمرى معك .. وصددت نفسى عن القراءة لك خشية أن يدفعنى الحنين اليك مرة أخرى .. وأنجبت ابنتى الوحيدة .. ومرت بى السنون وأنا مثال للزوجة الصالحة والأم المثلى التى لم تشب حياتها شائبة .

(وعندما بدأت ابنتى القراءة لك لم أحاول أن أصدها فقد كنت أجدك - مع السنين التى كرت ، والبعد الذى طال - أناى من أن تكون مصدر خطر حتى وجدت رسالتك اليها وعلمت أنها كتبت اليك فنهيتها عنك .

(ومرت الأيام .. وأنا آمنة مطمئنة .. لم يطف شبحك بذهني مرة واحدة .. حتى وجدت بالأمس .. كومة رسائلك اليها .

(عجيب هذا الذى حدث ! كيف ؟ ! ومتى ؟ ! ولماذا ؟ ما الذى دفعك اليها ؟ وما الذى دفعها اليك ؟

(ولقد رأيت صورك ، وقرأت رسائلك ، وعجيب فى نفسى كيف استطعت أن تحتفظ باشراقة وجهك وفتوّة روحك ، ونضارة قلبك .. ان السنين السبعة عشر لم تغير فيك كثيرا .

(وأدركت ببساطة كيف أحبتك .. ولم يصعب علىّ بالطبع أن أدرك كيف أحببتها .

(ان المسألة في نظرى لاغبار عليها لاسيما وقد كنت معها - على غير ما كنت مع أمها - مهذبا أمينا .. وقصدت واياها الى الطريق الصواب وتعاهدتما على الزواج واتفقتما كما أرى فى آخر خطاب على أن تتقدم لطلب يدها .

(كل هذا معقول .. ولكن ثمة أمر بسيط أريد أن أنبهك اليه . أمر قد تكون خالى الذهن منه .

(لقد حملت فى كوثر فى الشهر الذى لقيتك فيه ، ولست أستطيع أن أجزم بالضبط من يكون أبوها أنت أم زوجى ؟ ولكن الشىء الواضح الذى أستطيع أن أجزم به .. هو أنى لم أحمل بعد هذا من أبيها أبدا .

(أنا لا أستطيع أن أجزم بشىء .. وقد يكون أبوها هو فعلا أبوها .. وقد يكون أصيب بالعقم بعد ذلك .. أجل قد يكون ذلك ، وقد لايكون .

(وانى لم أفكر فى المسألة سوى اليوم ، وكوم الرسائل أمامى ومن ورائه شبحك يتقدم لطلب يدها .. والشك يكاد يقتلنى .

(لماذا ؟ من بين بقية بنات الأرض ، يقع اختيارك عليها ؟ ! .

(لقد عرضت عليك الأمر ، وسواء ذكرتنى أم وجدتنى ضائعة فى غمار مغامراتك .. فثق أن ما قلت هو الحق .

(واذا استطعت بعد كل ما قلت أن تقاوم الشك فتقدم لطلب يدها .. انى فى انتظارك .

وانقضت الصاعقة لتتركنى حطاما عاجزا عن الحراك والتفكير ، وأطبقت على رأسى بكتفى أمنعه من الانفجار والتطاير .. وأحسست بصوت عجلات القطار المنتظمة كأنها مطارق تهوى علىّ وأحسست من تباطؤ سير القطار بأنه يوشك أن يصل الى المحطة .. وودت لو استطعت أن أوقف القطار أو أعيده من حيث أتى .. ولكن أضواء المدينة بدأت تتواتر مؤذنة بالوصول .
ووجدت نفسى قد جمدت فى مقعدى كأنى قد أعجزنى شلل ، ومر الوقت بطيئا وأنا جاثم لا أتحرك حتى دق الجرس وعلا الصفير ، وبدأت عجلات القطار تدور وأخذ القطار يتباعد فى بطء .

وعلى ضوء أحد المصابيح لمحت وجهها يبحث فى لهفة بين النوافذ وفجأة التقت عيناها بعينى وأنا متصلق بالمقعد فى جلستى الصامتة العاجزة فهتفت باسمى فى صرخة مجنونة وانطلقت تعدو وراء القطار .

وأخذت أرقب شبحها يتضاءل وصرخاتها باسمى تخفت رويدا رويدا حتى غلبتها ضجة القطار وابتلعتها الظلمات .

وساد الصمت .. صمت أليم موجع .. ومد طرف لسانه يلعق دمعة ساخنة مالحة .. انسابت حتى شفتيه .. ولم تستطع صاحبته أن تكبح جماح دمعها .. تركتة ينساب فى غزارة .

وكان هو أول من تملك نفسه .. ورفع اليها بصره وقال فى مرارة :

– ألم أقل لك .. ان الإيجار خير من الامتلاك .

* * *